مخطوطات ومطبوعات

تحصيل غرض القاصد

في تفصيل المرض الوافد

هذا كتاب طريف في موضوعه ، غريب في وضعه وتنسيقه ، ألفه أبو جعفر احمد ابن خاتمة الأندلسي ، وقد سئل وضعه سنة سبع واربعين وسبعمائة [1]، خلال الوباء

(١) وفي تذكرة الصفدي : قلت وقد عمّ الفناء في سنة تسع واربعين وسبعمائة . وكان من قطيا الى بيروت ومعظمه بغزة :

قد قلت للطاعون وهو بغزة　　قد جال من قطيا الى بيروت
أخليت أرض الشام من سكانها　　وحكمت يا طاعون بالطاغوت

وقلت أيضاً وقد بلغني في الشام خبر جماعة من الأصحاب بأنهم توفوا في صفد :

لما افترست صحابي　　بأعام تسع واربعينا
ما كنت والله تسعاً　　بل كنت سبعاً يقينا

قلت وقد أفرط الطاعون بدمشق وقتل خلقاً كثيراً بالحبة التي اشتهر امرها :

أسفي على أكناف جلق اذ غدا الـ　　طاعون فيها ذا زناد وار
الموت ارخص ما يكون سجية　　والظلم زاد فصار بالقنطار

وقلت أيضاً :

رعى الله عصراً قد تولى　　يجازي بالسلامة كل شرط
وكان الناس في غفلات أمر　　فجا طاعونهم من تحت إبط

وقلت وقد كان يقتل بطلوع بثرة خلف الأذن :

تعجبت من طاعون جلق اذ غدا　　وما فات الآذان وقعة طعنه
فكم مؤمن تلقاه أذعن طائعاً　　على أنه قد مات من خلف أذنه

وقلت وقد كان يقتل بطلوع خيارة في الاربية :

ثلّ هذا الطاعون عرش دمشق　　بقضاء من ربنا سبحانه
فلكم مات بالخيارة شخص　　كان يبدو كأنه ريحانه

وقلت وقد كان يقتل بان يبصق الانسان دماً :

يارحمتا لدمشق من طاعونها　　فالكل مغتبق به أو مصطبح
كم هالك نفث الدما من حلقه　　او ما تراه بغير سكين ذبح

وقال : دارت من الطاعون كاس الفنا　　فالنفس من سكرته طافحه —

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

الذي ظهر في المرية من بلاد الأندلس ، وهو الوباء الذي عم بلاؤه المعمور كله ، لم يسلم منه شرق ولا غرب ، وسماه الافرنج بالطاعون الاسود La peste noire والمؤلف كما وصفه لسان الدين بن الخطيب في الإحاطة بأخبار غرناطة صدر يشار اليه ، متفنن مشارك ، قوي الإدراك ، سديد المنظر ، قوي الذهن ، موفر الأدوات ، كثير الاجتهاد ، معين الطبع ، جيد القريحة ، بارع الخط ، ممتع المجالسة ، حسن الخلق ، جميل المعاشرة ، حسنة من حسنات الاندلس ، وطبقة في النظم والنثر ، بعيد المرقى في درجة الاجتهاد ، وأخذه بطرق الإحسان ، عقد الشروط ، وكتب عن الولاة ببلده ، وقعد للإقراء ببلده ، مشكور السيرة ، محمود الطريقة في ذلك كله . قال وهو الآن بقيد الحياة وذلك ثاني عشر شعبان سنة سبعين وسبعمائة .

قسم ابن خاتمة كتابه على عشر مسائل ، وجزأه على بضعة فصول ، تكلم في المسألة الأولى على سبب تسمية هذا المرض بالوافد قال : فظاهر كلام الأطباء انها (اي الأمراض) وإن كان عنها موت ، فإنها لا تعدُّ وباءً لأن أسبابها متفرقة ، والأمراض الكائنة عنها مختلفة بالنوع ، وهذا النوع من المرض هو أحد نوعي الأمراض التي سماها ابقراط بالأمراض الوافدة . قال جالينوس وهي الأمراض التي تعم كثيراً من الناس في وقت واحد ، فمتى كانت مهلكة سميت موتاناً ، ومتى كانت سهلة خصت باسم المرض الوافد ، ومتى كانت خاصة ببلد دون بلد سميت بالأمراض البادية . وفي المسألة الثانية قال إن للوباء أسباباً خاصة وأسباباً عامة ،

— قد خالف الشرع وأحكامه لأنه يثبت بالرائحه

وقوله : لا تثق بالحياة طرفة عين في زمان طاعونه مستطيرُ
فكأن القبور شعلة شمع والبرايا لها فراش تطير

وقال ابن الوردي :

يقولون شم الخل في زمن الوبا وفاةً لما قال الأطباء ياخلي
فان قلت للطاعون تسطو على الورى يقول نعم اسطو وأنفك في الخل

وقال ابراهيم المعمار

قبح الطاعون داء فقدت فيه الأحبه
بيعت الأنفس فيه كل انسان بحبه

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة
www.alukah.net

وسببه العام ينقسم الى قسمين قريب وبعيد، فالقريب تغير الهواء المحيط بالإنسان الذي فيه تنفسه، وشرح ذلك وقال ان تغير الهواء في جهة المكان والموضع ينشأ من ارتفاع أبخرة فاسدة متعفنة من السباخ والبطائح المتغيرة المياه والخنادق والأحافير السرية الراكدة الهواء، والنبات والبقول المتعفنة، وأقذار الناس وفضلاتهم، وجيف القتلى في الملاحم والدواب التي أصابها الموتان ونحو ذلك.

وذكر تدرج الوباء حتى انتقل الى المرية وقال إنه حل أولاً في بيوت الضعفاء والمساكين؛ وان عدد وفياته اذ ذاك كان دون وفيات تونس وتلمسان وبلنسية، وأنه هلك في جزيرة ميورقة في يوم واحد ٢٥٢و١٠٠ (كذا)، وخمن من بقي من ناسها بعد الوباء بربع الجميع، وكذلك الأمر بسائر بلاد المسلمين والنصارى ثم قال ما لفظه: «وقد اختلف في مبدإ هذا الحادث من اين ابتدأ ظهوره، فذكر لي الثقة عن تجار النصارى القادمين علينا بالمرية أن ابتداءه كان ببلاد الخاد وبلاد الخاد بلسان العجم هي بلاد الصين، على ما تلقيته عن بعض الواردين من أهل سمرقند، وكان ثقة صدوقاً. وقيل أنه ابتدأ من الحبشة وسرى الى مصر والشام. وقال ان الاخبار ترادفت بنزوله بحصن قضا من معاقل الجنويني ثم بأرض بيرة وبالقسطنطينية العظمى وجزر الرمانية (الايطالية) من سواحل البحر الرومي وبلاد جنوه وأرض افرنسة آخر ريف الأندلس؛ فسهل بلاد أرغون وبرطونة وبلنسية وغيرها، وعم أكثر مملكة قشتالة حتى انتهى الى اشبيلية من أقصى المغرب واتصل مع ذلك بجزر البحر الرومي بجزيرة صقلية وسَرْدانية وميورقة وبلنسية وانعطف على سواحل العدوة وبلادها من أرض افريقية إلى مايلي المغرب».

وقال في المسألة الثالثة كلاماً في اختصاص الوباء قوماً دون آخرين على قرب الجوار بانه يتفق من وجه وهو كالاستعداد، ويختلف من وجه آخر وهو الخصوصية، وان البلاد ليست أحوالها متفقة من كل الجهات، فتختلف من جهة قربها وبعدها من الجزر من جهة أوضاعها، ومن قبل اماكنها في السهولة والحزونة، ومن قبل مآكلها ومشاربها. وشرح ذلك شرحاً مستوفى يصح أن يتخذ دستوراً في حفظ

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الصحة ، ووصف المرية ومآكلها ومشاربها وفي المسألة الرابعة تكلم على عدوى المرض الوافد فقال : الظاهر الذي لا خفاء به ولا غطاء عليه ان هذا الداء يسري شره ويتعدى ضره ، شهدت بذلك العادة وأحكمته التجربة ، فما من صحيح يلابس مريضاً ويطيل ملابسته في الحادث الا وتتطرق اليه أذاته ، ويصيبه مثل مرضه ، عادة غالبة أجراها الله تعالى ثم قال : ولقد شهدت أهل سوق الخلق بالمرية الذين يبتاعون بها ملابس الموتى وفرشهم ، مات أكثرهم ولم يسلم منهم ولا من الذين خلفوهم الى الآن إلا الأقل ، وغيرهم من أرباب الأسواق حالهم كحال سائر الناس . واطلعت في حال البلدان التي حرص أهلها على ان لا يدخل اليهم أحد من أهل بلاد الوباء وحافظوا على ذلك ، أن استصحبوا السلامة زماناً حتى غلبوا على ذلك ، وأن أكثر أهل الحصون التي تلي المرية ونزل بها هذا الحادث ليؤرخون بزمن نزوله بهم ، بقدوم فلان او فلانة عليهم من بلاء الوباء وموته بين أظهرهم ، ولهم في التحفظ من ذلك والتورط فيه حكايات تواترت بانتشارها فلا معنى لانكارها .

وانكفأ المؤلف في المسألة الخامسة يبين كيفية التحفظ والاحتراز من الوباء فحصر الأمور التي تدعو اليها حاجة الإنسان في بقاء حياته في ستة اقسام ، أولها الهواء المحيط بالإنسان وما يرجع اليه ، وثانيها الحركة والسكون ، وثالثها الأطعمة والأشربة ، ورابعها النوم واليقظة ، وخامسها الاستفراغ والاحتقان ، وسادسها الاعراض النفسانية . وفسر هذه الأنواع فقال إن إصلاح الهواء يكون باتخاذ البيوت الشمالية ، وفرشها بالرياحين الباردة ، ومسح الوجه والأطراف بذلك ، والمواظبة على شمه وشم الأترج والليم (الليمون ؟) والأزهار الباردة كالورد والبنفسج والترنجبين بالصندل مع يسير من العود الرطب ، وليحذر التعرض للشمس والسموم وموقد النيران وما يشعل حرارة الأبدان . وينبغي أن يمال الى السكون ماساعد الإمكان . وأصلح الأطعمة والشراب ما نشأ الإنسان عليه من البر والشعير اذا حسن اختيارهما ، وان كان يتناول الذرة فالأصلح الانتقال الى الشعير ، ومن الأطعمة حسو من فتيت خبز البر وطبيخ الأرز الدقيق ، وأصلح اللحوم ، إن استعملت ودعت الحاجة اليها ،

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة
www.alukah.net

لحوم الفتيان من الدجاج والحجل ولحوم الحملان ورضيع البقر يعصر عليها خل الليم أو خل الحصرم ويستعمل بيض الدجاج النيمبرشت ، وتستعمل البقول المزوّرات وأصلح الفواكه الكمثرى والرمان الحامض والموز والإجاص على خلاء المعدة ، وأصلح المياه ما عذب طعمه وصفا ، وخف وزنه ، وانحدرت جريته من ماء العيون وما قرب من ذلك فصلاحيته بحسب قربه ، ولا بأس باستعمال ماء الشعير المحكم ، وتناول شيء من شراب السكنجبين وشراب التفاح ممزوجين بالماء كل صباح على الريق ، وكذلك شراب الرمان والسفرجل والحصرم وربوبها وشراب الليم وحماض الأترج ونحو ذلك مما يكسر سورة الدم . وأصلح النوم ما كان ليلاً على المعتاد ، ولا بأس به نهاراً في الصيف ، وليعدل به في الصيف الى الأماكن الشمالية الندية التي تخترقها الرياح ، وأن تصرف العناية الى تسهيل الطبع دائماً .

ووصف لذلك كثيراً من الأشربة المباحة ووصف التيء لمن اعتاده ورأى أن الحجامة هي النكتة في حفظ الصحة عند حلول هذا الحادث ، ورأى النفع في الفصادة ، قال وكلما توفرت الموجبات في المتطببين عنده واحتاجت حالتهم للدم اطلقه لهم ، ولما ألف الناس الانتفاع به صاروا يفتصدون من تلقاء أنفسهم .

وأصلح الاستحمام ما كان في ديماس معتدل الهواء بماء عذب فاتر بحيث يستلذ صبه على الجسد ولا تطال مدته .

وأصلح الاعراض النفسانية التعرض للمسرات والأفراح ويستدعى ذلك بما أمكن من الأمور المباحة ، ومجالسة من تبتهج النفس بحديثه ، ومطالعة الكتب . وليحذر التعرض للغمّ ، واتعب الناس في هذه النازلة أرباب العقول ، وأروحهم البله وأصحاب الفراغ . ويتجنب ما يعود على النفس بروع أو فزع أو انزعاج .

وختم هذا الباب بقوله أنه لا ينبغي للعبد أن يفرط فيما أنعم الله به عليه من العلم والعمل الكفيلين بمصالح الدنيا والآخرة ، ولا ينبغي للعبد ان يخل يده من التوكل طرفة عين فلا يكون توكله على الله تعالى سبحانه الا بعد استفراغ جهده في التحفظ والاحتراز ، وهذه حقيقة العبودية .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة
www.alukah.net

وبسط في المسألة السادسة علاج الوباء الذي عرف إلى عصره « بحسب ما أعطاه العلم وشهدت له التجربة وصححته المعاناة والممارسة » وأتى على مشاهداته في أناس لا يأخذهم الحصر أثر فيهم اطلاق الدم قال : وأما إذا استحكم المرض فالمداواة في الغالب قليلة الجدوى . وقسم الطواعين الى ثلاثة أنواع وذكر أعراضها وتشخيصها وعلاجها .

وهنا انتهى القسم الطبي من الكتاب وبدأ القسم الديني وأورد ماورد في السنة وعن السلف الصالح في وجوب التوقي والأخذ بالحذر والحزم .

ومن هذا الكتاب نسخة كتبت سنة ٩٩٥ على يد علي بن غانم المقدسي من علماء عصره . وهي ١٥٠ صفحة واظنها دخلت في مجموعة العلامة احمد زكي باشا التي ضمت إلى دار الكتب المصرية وحبذا لو تصدى احد العارفين فطبعه مع التعليق عليه .

محمد كرد علي